المقتطف

الجزء الاول من المجلد السابع والثلاثين

١ يوليو (تموز) سنة ١٩١٠ — الموافق ٢٤ جماد الثاني سنة ١٣٢٨

شاهين بك مكاريوس

اذا كُتب تاريخ النهضة الحديثة في الشام التي ابتدأت فيه منذ خمسين عاماً وتدرّجت في ارتقائها حتى بلغت ما بلغتهُ الآن وعُزي كل فضل فيها الى ذوي بعض المدارس والمطابع والجمعيات العلمية والادبية والصناعية الجانبُ الاكبر منهُ وذُكر اسم الفقيد بين ارکان هذه النهضة لا لانهُ الَّف كتباً علمية وطبية كفان ديك وورتبات او ادبية ولغوية كاليازجي والبستاني ولا لانهُ انشأ المدارس الكلية كبلس او وسَّع نطاق العلوم الطبيعية كبوست بل لانهُ ساعد على نشر المعارف واعان طلاَّبها والمشتغلين بها جيد طاقته . واذا اعتبرنا قلَّة وسائطهِ وانهُ لم يدخل مدرسة عالية قط ظهر لهُ فضل كبير على الذين نشأوا في بيوت العلم والفضل

وقد كتبنا في اليوم التالي لوفاتهِ سطوراً في المقتطم جريدتنا اليومية الصادر في ١٤ يونيو نعيد نشرها هنا لانها خلاصة ترجمتهِ ونلحق بها ما يناسب المقام

اخونا شاهين

اصبحنا نحن الثلثة اصحاب هذه الجريدة اشبه الناس في اعتبار الجمهور بالشخص الواحد منا بثلاثة اشخاص . فكم من كتاب يأتينا كل يوم معنونٌ باسم الدكتور «صروف نمر» او باسم «نمر مكاريوس» كأن لا فرق في اعتبار الكاتب بين يعقوب صروف . وفارس نمر . وشاهين مكاريوس . وكثيرون من الذين يفرقون بيننا يعلمون اننا ثلثة لا واحد يحسبوننا ثلثة اخوة ابناء اب واحد وام واحدة ويظهرون من التعجب والدهشة ما لا يوصف متى علموا اننا ثلثة رفقاء لا قرابة بينهم ولا نسب ولكن جمعتهم جامعة الصداقة والمودة منذ نعومة

اظفارهم الى ان وخط الشيب رؤوسهم وفرّق الموت بينهم باختطاف ثالثهم وترك اوليهم ينوحان عليهِ

نحن نكتب هذه السطور للجمهور فيقتضي المقام ان يكون الكلام مطابقاً لاعتبار الجمهور . ولما كنا في اعتبار معظم الجمهور إما شخصاً واحداً او ثلثة اخوة مشتركين معاً في شغل واحد اتخذنا هذا الاعتبار ذريعة لنا الى تلطيف احزاننا وتخفيف ضرام الحسرات المتأججة في فؤادنا بجعل عنوان هذه المقالة « اخونا شاهين » لانها احب الالفاظ الى سمعنا وارق المعاني التي تنبسط لها نفسنا

من أشق الواجبات على الصحافي ان يفقد اليوم عزيزاً من اعز الناس عليهِ وان يشقَّ غداً مقالة عنهُ اذا قرأها القريب قال ان منشئها لم يقصر فيها ولا بخس عزيزهُ حقهُ واذا قرأها الغريب قال ان منشئها لم ينشئها وهو عبد عواطفهِ واسير اهوائهِ فاعتدل والصف ولم يبالغ في اطراء فقيدهِ ولا تجاوز الحدود في تأبينهِ وتعظيم فعالهِ . ولما كنا نخط هذه السطور والدمع يمتزج بالمداد والحزن ملء الفؤاد فنحن في اصعب مقام يستطيع الصحافي قضاء الواجب عليهِ فيهِ قضاء من لا يميز بين حبيب وغريب ولا يفرق بين بعيد وقريب . ولكن « اخانا شاهين » اتصف بصفات كان شذا عبيرها يملأ آفاق كل بقعة حلها وامتاز بمزايا ظهرت في البلاد كلها فلا خوف على الصحافي من الخطاء في وصفها او المبالغة فيها مهما كانت احوالهُ من الحزن او السرور والضيق او الفرج والهيجان او السكون

لم يطلع احدٌ على ترجمة حياة « اخينا شاهين » الا اعترف من فورهِ بانهُ كان «عصامياً» بكل معنى من معاني الكلمة وانهُ امتاز بصفات العصامي امتيازاً لا ينكرهُ عليهِ احد . ولد في قرية صغيرة اسمها ابل السقي من قرى مرج عيون بسورية في ٢٠ مارس سنة ١٨٥٣ ميلادية ولم يبلغ الرابعة من عمرهِ حتى توفي الله والدهُ فبات يتيماً . وحدثت فتنة سورية المشهورة سنة ١٨٦٠ فاريقت فيها الدماء واحرقت فيها المنازل او نهبت وسلبت المقتنيات والامتعة وفقد اخونا شاهين كل ما تركهُ لهُ والدهُ من متاع الدنيا فخرجت بهِ امهُ وهو صبي صغير يتيم فقير وجاءت بهِ وباختهِ وهي طفلة الى بيروت حيث كان عمهُ المرحوم جرجس شاهين (والد حضرة الكاتب البليغ اسكندر افندي شاهين محرر جريدة الوطن)

ولما سكنت نار الفتنة وعاد الامن الى نصابهِ عادت والدتهُ بهِ وباختهِ الى قريتهم فجعل هناك القراءة البسيطة على معلم فاضل هو اليوم النفس يرأكيم مسعود ومن اعز اصدقاء الفقيد وانشأ المرحوم جرجس شاهين حينئذٍ مطبعة اسمها المطبعة الوطنية فجاء اخونا شاهين الى

بيروت ثانية وطلب من عمه ان يسمح له بتعلم جمع الحروف وصناعة الطباعة في مطبعته لانه يعرف القراءة والكتابة فدخله الى المطبعة وعمره حينئذٍ تسعة اعوام او عشرة . فاجتهد في صناعته الاجتهاد الفائق الذي اشتهر فيه بين جميع المعارف والاقران فتحها في زمان قصير وبرع في جمع الحروف براعة غريبة وجعل يفوق رفاقه واحداً واحداً في صناعة الطباعة حتى صار اوله وهو غلام وهم شبان وكثيرون منهم من سن والده . ولكن اجتهاده لم يقتصر على تعلم الطباعة بل طمحت نفسه باكثر منها كثيراً من اول عمره . فقد كان علماء بيروت وشعراؤها وادباؤها يختلفون كثيراً الى المطبعة الوطنية لطبع مؤلفاتهم وقصائدهم وتصحيحها فكان يسرع الى مقابلتهم ويدوِّن المسودة لكي يصححوها فيجدونها قليلة الخطاء متقنة الجمع حسنة الترتيب مضبوطة الشكل في الغالب فيسرون بها ويمدحونه على مسمع من عمه ويطلبون ان يقضي شغلهم على يده حتى جعله عمه مدير مطبعته

وكان يلتقط منهم الفوائد الصرفية والنحوية والعروضية لانه لم يدرس هذه العلوم ولا غيرها على استاذ طول حياته . ويظهر من النجابة والذكاء مع رقة عظيمة في الطباع ولطف في الاخلاق ما اكسبه اعجابهم به وميلهم اليه . ومصادقتهم له مصادقة دامت طول حياتهم فظل يكاتب كثيرين منهم مدة اقامته بمصر حتى فرقت المنون بينه وبينهم . ووافق ذلك ميله الفطري وسليقته التي طبع عليها فجعل يقصد مجالس العلماء والادباء ويتندى بهم في المطالعة والانشاء حتى تعود النثر ونظم الشعر وله مقالات كثيرة وقصائد حسان نظمها وهو يافع من دون ان يدرس على استاذ كما مرَّ بنا

وظل مديراً للمطبعة الوطنية اربع سنوات تعرف احدنا به في اواخرها وكان عند تقابلهما يقرأ منظومة له على بعض اصدقائه . ثم دخل المطبعة الاميركية في بيروت ولم يقض فيها الا القليل حتى استوقف اجتهاده وبراعته في صناعته ابصار استاذنا العلامة الكبير المرحوم الدكتور كرنيليوس فان ديك فجعل اعتماده عليه في جمع اعسر مؤلفاته الرياضية جمعاً وخصوصاً جداول اللوغارثمات لقلة ما يرتكب في جمعها من الخطاء ومال اليه رحمه الله كثيراً فكان يخاطبه دائماً بقوله « اخي شاهين » واذا ذكره امام الآخرين قال انه مثال الاجتهاد واللطف وجبار من الجبابرة في انجاز الاشغال

ولا نطيل الشرح بسرد الحوادث التي مرت في حياته من هذا القبيل اذ هذا ليس المقصود من هذه العجالة وانما نقول ان هذا الغلام الذي ابتدأ العمر يتيماً مسلوباً فقيراً ولم يقرأ العلم على استاذ كان شديد الغرام بالادب ومعاشرة العلماء والادباء فانه لم تكد تنشأ جمعية

ادبية او علمية في بيروت ايام وجوده بها الا كان من مؤسسيها او من الاعضاء الفدماء فيها ولما تزوج وفتح بيتاً كان منزله شبه دار يجتمع فيها اهل العلم والادب ويقصدونها من كل حدب وصوب . ووسع علاقاته الادبية في كثير من انحاء مصر وجميع انحاء سورية وسائر البلدان الشرقية التي اقرأ فيها العربية لما استلم ادارة اشغال المقتطف الذي انشأناه بعد ما تمكنت الصداقة من نفوسنا في سن تتوطد فيه الاخلاق والطباع ولا تشوب اخلاصه شوائب الاثرة والانتفاع

فتعاظمت اشغاله على قدر ما يحتمل مجال اجتهاده حتى لقد اصبح من اوفر ابناء سورية اشغالاً يشتغل ويؤلف ويكاتب ويقوم باشغاله في المطبعة ويدير اشغال المقتطف ويحضر الجمعيات الادبية والعلمية ويقوم فوق ذلك كله بما لا نظن احداً من ابناء الشرق قام بمثله من خدمة الماسونية . ولما انتقلنا الى القطر المصري في اواخر سنة ١٨٨٤ وانشأنا مطبعتنا الحالية كان يشتغل فيها كالجبابرة بهمة لا تعرف الكلل ولا الملل وعكف من ذلك الحين على تعليم صناعة الطباعة لكثيرين من ابناء المصريين الذين دخلوا المطبعة وهم ابناء ستة اعوام او سبعة واصبح كثيرون منهم الآن اباء عيال ومن ابرع المصريين في هذه الصناعة وقد انشأ بعضهم مطابع اقتداء به وكان جمهور كبير منهم يحيط بنعشه في تشييع جنازته وكانوا يبكونه بكاء الابناء لآبائهم

وقد كان يلقى من الرعاية والاكرام ما يستحقه عند كل مقام سام اتصل به . فاتصاله باكابر ايران جعل له منزلة عظيمة عندهم واكسبه انعامات شتى من انعامات ملوكهم وامرائهم ومساعيه العظيمة الماسونية اكسبته صداقة كثيرين من اكبر اقطاب الماسونية في اميركا وغيرها . وقد حظي بالرعاية والاكرام عند عظماء المصريين واكابرهم واكتسب صداقة جمهور عظيم جداً من امرائهم واعيانهم وعمدهم . ومما كان يساعده على ذلك كثيراً رقة طباعه وعلو همته واستعداده لخدمة اصدقائه وخلوه من التكلف في اقواله وافعاله فلا يتردد على مجلس عين من الاعيان مدة يسيرة من الزمان حتى تسمعه يخاطبه بعبارات خالية من التكلف دالة على الوداد . . فما كنا نسمعه من استاذنا المرحوم الدكتور فان ديك في خطابه له وكلامه عنه كنا نسمعه عنه من كثيرين من اعاظم اهل هذا القطر وافاضلهم

ومما كان يزينه فوق ذلك كله حنوه ورقة قلبه فقد اسر بهما قلوب كثيرين من معارفه كما تسلط بهما على قلوب اولاده وذويه تسلطاً ظهر باعظم مظاهره في بكائهم له ونوحهم عليه وذكر هاتين الصفتين خصوصاً فيه

ولم يمس هذا العصاب قط ما يلقى الذين يكونون في اول عمرهم كما كان من الشدة والضنك فكان يجود بمساعدة غيره بما فاق طاقته في بعض الاحيان . فكم انفق على تربية بعض وتعليم اخرين من اقاربه وكم بذل لمساعدة المحتاجين وهو يفعل ذلك من غير ان تعلم يسراه ما تعطيه يمناه . وقد رأى عائلته الكبيرة احسن تربية وبذل جهده حتى علّم اولاده في احسن مدارس بلاده وعاش عمره وهو يقصد لجميع الناس خيراً ولا يريد لاحد شراً!

وبعد ما قضى نيفاً وخمسين سنة من عمره وهو يجاهد جهاد الابطال ويصل الايام بالليالي في الاشغال تطرق اليه الضعف وبدت عليه آثار التعب فجعل ينوء باثقال الاشغال ويقول انه لم يبقَ له جلد على الاعمال . وذهب منذ عامين لقضاء الصيف في جبل طرودس بجزيرة قبرس وترويح الصدر وتبديل الهواء . فاحس بتجدد عافيته وكتب منها رسائل عديدة الى المقطم ولكن اصابته نوبة هناك اوشكت ان تقضي عليه . ولما عاد الى هنا علمنا انه أصيب بنوع من الشلل وانه لم يعد يستطيع العمل فاطمحنا عليه في الاستراحة وقضى هذين العامين وهو يؤمل الشفاء وعود القوة ولكن توالت عليه النوبات ولم يجدِ العلاج بالكهربائية وجعل جسمه يفحط . غير انه كان لا يزال قوياً يحتمل جسمه المعيشة عشرين سنة مع الراحة . قضى يومه اول امس (الاحد ١١ يونيو) على غاية ما يرام في حديقته بحلوان ولما امسى المساء تعشى مع عائلته ومهر ثم خلع ثيابه لينام ولما دخل سريره ناداه داعي الردى فلباه في ثانية من الزمان بلا وجع ولا آلام ورقد بسلام . انتهى

وقد شُيّعت جنازته في اليوم التالي من حلوان الى القاهرة فالكنيسة فالمدفن باحتفال عظيم مهيب مشى فيه جمهور كبير جداً من العلماء والكبراء وصفوة الاصدقاء والاحباء فوارينا جسمه التراب وعزاؤنا ان هذا الفراق الوقتي يعقبه لقاء ابدي وان فقيدنا ربّى عائلة كبيرة يفتخر بها الاباء وخلّف من الآثار الادبية والعلمية ما يخلّد ذكره مدى الادهار

والخصّ ما امتاز به بين اقرانه من الاعمال النافعة انقاذه لصناعة الطباعة وتعليمها لكثيرين من ابناء هذا القطر وعضده للمشروعات العلمية والادبية واهتمامه بالجمعية الماسونية . اما الامر الاول فحسبنا دلالة عليه الرسائل التي وردت من تلامذته الذين علّمهم هذه الصناعة وصاروا الآن رؤساء مطابع كبيرة مشهورة باتقان طبعها . اخذ هذه الصناعة عن اربابها في مدينة بيروت واتقنها بالممارسة ثم علمها لكثيرين في هذا القطر بالمزاولة ولا يخفى انها الدعامة الكبرى لتقدم المعارف ونشر العلوم وان الكتب السقيمة الحرف والطبع تثلب النظر في استجلائها

والعمل في فهمها فكل ما يصلحها يزين حقيبة كبيرة من سبيل العلم ويسهّل انتشاره

والامر الثاني وهو عضدهُ المشروعات العلمية والادبية بمساعدة اربابها ومشاركتهم فيها فقد كان مبالاً اليهِ من صباهُ كأنهُ فطر عليهِ حتى صار بيتهُ ناديًا للعلماء والادباء كما تقدم. وكان لهُ اتصال بكثيرين من ذوي المقامات العالية فاستعان بهم على اغاثة الملهوفين واعانة طلبة العلم بكل ما تصل اليهِ يدهُ ويناله سعيهُ

والامر الثالث اهتمامهُ بالماسونية فانهُ فاق كل اهتمام. ولا يخفى ان الجمعية الماسونية هي الجمعية الوحيدة التي يرجى منها نزع العصبيات الدينية التي اضرَّت بالشرق وربط ابنائهِ كلهم برباط المحبة والوئام على اختلاف اجناسهم واديانهم. ترى المحفل الماسوني يجمع بين المسلم والمسيحي والاسرائيلي وهم متآخون متعاضدون على اختلاف عقائدهم وعلى التباين بين درجاتهم في الهيئة الاجتماعية. اي محفل يتعانق فيهِ المسلم والمسيحي والاسرائيلي كالمحفل الماسوني. اي محفل يتعانق فيهِ الامير والوزير والعالم والتاجر والصانع كأنهم ابناء بيت واحد وعائلة واحدة كالمحفل الماسوني. ولقد كان لاخينا الفقيد شغف شديد بنشر الماسونية وانشاء محافلها وجمع اخبارها واختيار المترجمين لترجمة ما كتب عنها الى العربية ونشرهِ فيها فاذا افادت هذه الجمعية بلادنا العربية الفائدة التي ترجى منها فلهُ سهم كبير من ذلك. وقد عرفت لهُ المحافل الماسونية هذا الفضل فجعلتهُ على درجاتها وقلدتهُ اعظم وساماتها

بقي اننا انشأنا المقتطف سنة ١٨٧٦ ومرَّت علينا السنة الاولى ونحن لكتبهِ ونتولّى كل ما يتعلّق بادارة اشغالهِ فرأينا في آخر السنة ان نسلم تلك الادارة لمن يقوم بها حتى نتفرغ للانشاء فعرضناها على فقيدنا فقبلها مسرورًا[1] ثم لما عقدنا النية على مغادرة بلاد الشام والاقامة في القطر المصري في اواخر سنة ١٨٨٤ ترك عملهُ في بيروت ورافقنا الى هذا القطر ولم نفترق من ذلك الحين. وكنا نرجو ان يفسح الله لهُ في الاجل حتى يتمتَّع بثمار اتعابهِ مستريحًا من عناء الاعمال ولكن وافاهُ القدر المحتوم ولا ردَّ لقضاء الله

وما الناس الاَّ راحلٌ بعد راحلٍ الى العالم الباقي من العالم الفاني

ولقد خلَّف لاولادهِ واخوانهِ واصدقائهِ خير قدوة يقتدى بها في علو الهمَّة وسلامة النية وحسن الطوية والسعي المتواصل لما يعلي شأن المرء ويزيد نفعهُ لوطنهِ وهذا اكبر عزاء لنا نحن اخويهِ اللذين فقدنا بفقدهِ اخًا صفيًا وخلاًّ وفيًّا

وما اودى امرؤ اودى وابقى لورائهِ مكارمُ لا تبيدُ

(١) قد فصَّل ذلك في صدر الجزء الاول والثاني من المجلد الثاني والطبعة الاولى ص